

1436هـ - 2014 م

حِكْمَةُ الإبتلاَء

بقلم

الشيخ عمر بن محمود أبو قتادة

- الطبعة الثانية -

حِكمَة الابتلاء

بقلم الشيخ
عُمَر بن محمود أبو عُمَر
أبو قَتادة
حفظه الله

الطبعة الثانية

صفر ١٤٣٦ – ديسمبر ٢٠١٤

إهــــداء

أُهدي هذا الكتاب إلى ابنتي وابن أخي بمناسبة زواجهما حيث لم أتمكّن من حضوره فكانت الدمعات في الأعين بدل البسمات.



وبه – سبحانه – نستعين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه أجمعين، آمين، أمّا بعد...

فيا أبا عبد الله حفظك الله لطاعته، وأسبغ عليَّ وعليكَ من رحمته، ووسعنا جميعاً بمغفرته، تطلب مني أن أكتب لك شيئاً تُحلّي به نفسك، وترفع به همتك، وتقوي فيك الصبر على ما نحن فيه من أحوال، وأنت تعلم أن طريق ولاية الله طريق الصبر واليقين، لأنه يجمع أمرين اثنين هما: صعوبة ومشقة الحال، وراحة ونوال المطلوب في المآل، فالأول لا يقطع إلا بالصبر والثاني لا يحصل إلا باليقين، فنحن اليوم وإن كنا في القيد والأسر، ويتحكم فينا أنزال سفلة، يغلقون عنا الخير الذي نريده من الجهاد، ويمنعون عنا أعظم ما يحتاجه الإنسان وهو الحرية لقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ﴾ وقد جمع الله كراهية قتل المرء نفسه مع خروجه من دياره في مقام واحد، وذلك لعظم خروج المرء من دياره، والسجين يعاني أشد من إخراجه من دياره، فهو فيه هذا وفيه أكثر وهو القيد حتى عد بعض أهل العلم السجن هو تطبيق لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ لقول الشاعر:

إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

لكن يا صاحبي وأخي إن ما يرطب ذلك كله أن هناك الدار الآخرة، وهناك الحساب والجنة والنار، وهي حقائق أعظم من حقيقة اللحظة التي نعيشها، فإن لحظات هذه الدنيا زائلة ذاهبة، ولحظات الجنان مقيمة دائمة، فوالله لو كشف للمظلوم المسجون بسبب دينه وحبه الجهاد ماله من الأجر في الآخرة لتمنى أن لا يخرج مما هو فيه، لكننا أبناء الدنيا يا أبا عبد الله، فلنا شهواتنا ورغباتنا، وفي داخلنا إنسانٌ مُركَّبٌ على حُبِّ النعيم، فلا تجزع ولا تحزن، وليكن من يقينك الذي لا تغفله أن العاقبة للمتقين، فنحن نركض إلى اليسر من العسر الذي نحن فيه، وخصومنا المجرمون يركضون إلى

العسر من اليسر الذي هم فيه، فنحن أسعد منهم بكثير، كما أن من يقين المؤمن أن النصر آت، حتى لو تأخر حيناً، فإن للتأخر حسناتٌ منها ما تحقق من تأخر الفرج عن يوسف عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ فإنه لو خرج يومها لما خرج إلى الملك والتمكين في الأرض، لكنه لما تأخر الفرج كانت العاقبة أعظم وأفضل للمبتلى المظلوم.

أخي أبا عبد الله:

تطلب مني كلمات تُعينك على هذه المحنة، وهل هناك أعظم من أن أتلو وإيّاك آيات الصبر التي تُسلي مثلي ومثلك؛ فنحن يا صديقي عبيدٌ لله تعالى، وحقيقةُ العبودية لا تقومُ على الاختيار، بل لا تقومُ إلا على التسليم لما يختاره سيده له، فإن الله تعالى هو حسبنا ووكيلنا، يضعنا حيث يريد مما يحقق الخير لنا ولدينه، ونقبل ذلك منه حتى لو كرهته نفوسنا، فإن الخير ليس ما نحب، وليس الشر هو ما يكره، فالله يقول: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾والله يقول: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ ... فتفكّر في آثار هذا الذي نكرهه من القيد من الخير ترى أشياء كثيرة هي أعظم في ميزان العقل والهدى من البقاء أحراراً، فإن البلاء وإن كان مكروهاً في الحال، إلا أنه خير في المآل للمؤمن كما قال ﷺ: ((إن أمر المؤمن كله له خير))، ولعلَّ من الخير أن أتذاكر معك بعض فوائد البلاء في سبيل الله تعالى، وسأكتبُ لك تباعاً بعض هذه الفوائد لنراجعها معاً، واقرأها مع إخوانك إن أحببت.

فوائد الابتلاء في سبيل الله تعالى:

إنَّ أول الفوائد العاجلة التي تحصل بالبلاء في سبيل الله تعالى أن العبد يقرب فيها من ربه، فإن دعاء الغريق ليس كدعاء الجالس مطمئناً على شاطئ النعيم، فإن دعاء الأول يحضر به القلب، ويتوجه الإنسان بكليته إلى مولاه الرحيم، ولذلك كان المترفون أبعد الناس عن الذكرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾، فإن الترف يدعو للهو والغفلة والنسيان، وقلة المصائب تضعف شعور الفقر والحاجة، فإذا جاءت المصائب تَذَكَّر المرء ضعفه وحاجته فيلجأ لربه الرحمن، ويفزع للدعاء والسؤال، فيبلغ بهذا السؤال والاستغاثة وشعور الفقر

والضعف ما لا يبلغه بكثير من العبادات إن كان طائعاً، فكيف إذا كان في ترفه بعيداً عن الطاعة بالكلية، ولهذا المعنى كان الصالحون يحبون البلاء لما يحسونه من معاني الفقر وصدق الدعاء والاستغاثة، ولو لم يكن في البلاء إلا هذا المعنى لكفى، فإن العبادة مقصود الرب في الوجود، ومقام العبودية لا يتحقق إلا بالذل والإخبات والإنابة، فلهذا كان البلاء هو أعظم مقام يلزم العبودية، ولا يتخلف عنها البتة كما قال ﷺ: ((أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثَلُ فالأمثل)) وكقوله ((يُبتلى الرجل على قدر دينه))؛ فإن فهمت هذا أدركتَ أن العبودية لله تعالى ابتلاء، وهي كذلك نعمة عظيمة، وحين يعسر على المرء فهم هذه المناقضة بين البلاء الذي تكرهه النفس وبين العبودية التي يحصل بها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ يرى أن هذا الحوار؛ فبالبلاء الذي تكرهه النفس يحصل القرب لرب العباد بالدعاء والاستغاثة، وهذه لها معاني النعيم في قلب المؤمن، ويحصل بها ذوق الإيمان والشعور به مع المتعة به، وهذا كله في مقام واحد لا يشعر به ولا يفهمه إلا من عاناه وعاشه وتقلب فيه.

فبالبلاء تحصل العبودية القائمة على التذلل والسؤال والاستغاثة، كما هو حال أيوب ويوسف وإسحاق وزكريا – عليهم السلام –، وذلك فيما وقع لهم من البلاء البدني والعائلي، وغيرهم من البلاء الذي حصل لهم في نفوسهم وأهليهم كحال إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، وما من نبيٍّ إلا وابتُلي في دعوته إلى الله من قومه كما هو مبسوط في كتاب الله تعالى، وقد كان هذا البلاء بكل أنواعه سبباً للعبودية والسؤال والإخبات والإنابة، فإن المكسور الضعيف هو من يليق به وصف العبد دون سواه، وهذا الوصف لا ينزع إلا بتخلف شعور الضعف والاستكانة والانكسار، وهذه العبودية التي تحصل بهذا المعنى هي العبودية الصادقة، لأنها عبودية قد ابتليت وفتنت ففيها الصدق في السؤال والرجاء واليقين، فشتان بين من يسأل وهو على الفقر والضعف والحاجة والابتلاء وبين من يسأل وقد ذهب عنه كل هذه المعاني.

فهذه أول فوائد البلاء وهو القربُ من الله تعالى بتحقق معنى العبادة لله تعالى، ولذلك كانت لازمةً من لوازم الطريق، دون النظر إلى مقام النفس معها، أتحبها أم تكرهها، فليس هذا مقصود العبادة، فهناك من يحب هذا المقام ويحصل له الأنس به، بل هناك من يتمناه ويرقبه، وآخرون

يكرهونه ويخافون وقوعه ولا يحبونه، فإن وقع صبروا عليه ولم يزدهم وهم وقوع فيه إلا ثباتاً على الحق وكثرة دعاء بأن ينجيهم الله منه، وكلا الفريقين محسن مخبت، فهذا من مقام الشكر وآخر في مقام الصبر والله يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

إن من فوائد الابتلاء والمِحَن ثبوت صدق الدعوى، فإن الدعاوى إن لم يقم لها بنيات فأبناؤها أدعياء، وهذا معنى قرآني جليل فالله يقول: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ وهذا معنى قد تكرر في القرآن، فإن النعيم يبتلى به مقام الشكر، فإن حصل هذا المقام فقط دون غيره لم يحصل الكمال، ولذلك كان مقام الصبر وهو الذي لا يحصل إلا بالبلاء، وبهذين الدليلين يحصل صدق الدعوة، ومن فقه هذا من أهل القلوب علم أن الابتلاء هو خير الفرص لتحقيق مقامات الصدق مع الله تعالى، فإن وقع البلاء فرح به على هذا المعنى، وهو قريبٌ من قول الصحابة ﷺ في الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، وهو من قول أنس بن النضر عم أنس بن مالك: "لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع." فنزل قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾، وفي مثل هذا الظرف والبلاء ترتفع قيمة الحسنات والطاعات ويقع عليها قوله ﷺ: ((العبادة في الهرج كهجرةٍ إليّ)) ولقد كان الابتلاء كالكير يدخل إليه الذهب والزيوف، ولا يعرف الفرق بينهما إلا بالنار، حيث تثبت حقائق الأشياء، ولهذا المعنى كانت ضرورة الإبتلاء حتى لا يكون مع هذا الدين الخبيث، فيفسد الدنيا والدين، والله يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾، وفي هذه الآية بيان أن بلاء الإيمان لا يكون إلا في هذين الطرفين؛ الجهاد والصبر، وفي زماننا هذا لا يعرف الصبر إلا بالحبس والقيد، فالله تعالى ييسر للبعض سُبُلَ الجهاد فيُقتَل أو يُصاب أو يُرهَق، فإمّا أن يثبُت ويحمُد ويشكُر، وإمّا أن يَفِرَّ وينتكس، وقد رأينا هذا الحال في أقوام، فلا يُحسَد ويُغبَط كُلَّ مَن يَسَّرَ الله له الوصول إلى مواطن الجهاد، بل يحمُد ويَشكُر من ثَبُتَ وصَبَر، وهناك من يحبسه الله بالقيد والسجن عن الوصول إلى أرض الجهاد، فحاله كحال المجاهد، ويبتلى بما يُبتلى به بلا فرق إلا أن المجاهد يشفي غيظه من عدوه، بخلاف الأسير فهو مقهور، فإن ثبت خرج كالذهب الأصيل، وقد يكون هذا – وهذا كثير – أي القيد سبباً لتحضير المرء لمواطن أخرى من الخير تحصل له الإمامة فيه.

والعبد الصالح لا اختيار له مع سيده، فإن وضعه الله في الجهاد صبر وثبت وشكر فكان خيرا له، وإن وضعه في الصبر ثبت واستغل وقته في العبادة والنظر والارتقاء فكان خيرا له، فبالحالين يقع إثبات صدق دعوى الإيمان والتسليم لرب العباد، ومن فهم الابتلاء على هذا المعنى صبر وثبت ورضي بما قسم الله تعالى له، وإن فاته هذا المعنى ضعف وربما انتكَس، ولا يستقيم هذا المعنى في قلب العبد إلا أن يفقه أنه ما خلق إلا لعبادة الله، وأن الدنيا بكل ما فيها دار ابتلاء كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأمّا بهائم البشر ممن يظن أن الحياة الدنيا هي للترف والتنعم واتباع الهوى فهؤلاء أبعد الناس عن هذه المعاني، نعوذ بالله من الخذلان.

ولتقوية هذا المعنى في القلب فإن من الخير أن يعظ المرء نفسه بأجر الأعمال الصالحة في وقت البلاء، وأنها تضاعف، بل تكون الأعمال العادية الطبيعية الجبلية طاعات يكتب أجرها للعبد حال الابتلاء وهذا يؤدي إلى معنى آخر يُبيّن فوائد وضرورة البلاء والامتحان في سبيل الله تعالى، قال ابن الجوزي: "إذا رأيت سربال الدنيا قد تقلس عنك فاعلم أنه لطف بك، لأن المنعم لم يقبضه بخلاً أن يتمزق، ولكن رفقاً بالساعي أن يتعثر."

يقول ﷺ: ((ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر))، ويقول ﷺ: ((ما من مسلمٍ يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كَفَّرَ الله بها سيئاته وحطّت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها))، فهذا الحال وهو حال البلاء، به يحصل مقام الصبر يرتقي به المرء إلى مقامات ويحصل له به من الحسنات ما لم تحصل في أي حال آخر، فكما أن المرء يحتاج إلى الصلاة لتغسل ذنوبه، فكذلك يحتاج للبلاء لتحصل له الدرجات والحسنات، فإن فهم المرء هذا المعنى فهم معنى قوله ﷺ: ((إن عظم الجزاء مع عظم البلاء))، فالخوف ليس على المُبتلى، إنما الخوف على من مات ولم يصب في حياته ببلاء، فإن الأول تحط خطاياه، فيأتي يوم القيامة سليماً منها، معافى من السؤال عنها، وأما الثاني فإنه يأتي معها وهي محيطة به، والعاقل قد يتعب نفسه رجاء الصحة أو المال والغنى، فيتعب وينصب لا لذات التعب والألم لكن لما ينتج منها من العاقبة، فالله إن أحب عبداً وأراد له مقاماً عظيماً من الخير في الآخرة وضعه في مقام الصبر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّ الصَّابِرُونَ

أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا الأجر لم يأتِ قَط إلا للصبر والذي لا يكون بالترف والدعة ولكن بالابتلاء والامتحان.

وقد يعجز البعض عن فهم هذا المعنى وهو بلوغ المقامات وتكفير السيئات بما تكره النفوس، إذ يحب المرء العافية ويطلبها من الله تعالى كما في الحديث الصحيح: ((اللهم إني أسألك اليقين والعافية))، فكيف يطلب المرء العافية وهو يعلم أن الابتلاء فيه مقامات عالية في الجنة مع تكفير السيئات؟ والجواب: أن المكاره وهي سبيل الجنة كما في الحديث الصحيح لا تكون إلا بابتلاء العافية واضطرابها، فالمرء له اختيار، والله له تدبير وتقدير، وتقدير الله تعالى خير للعبد من اختيار العبد كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ، فالمرء يقع في البلاء لتقدير الله تعالى له، وهو خير له، وهو يطلب العافية لأنها راحة له، وهنا يقع في قلب العبد الرضى باختيار الله تعالى على اختياره، وعلى مراد الله تعالى على مراده، والمرء يتمنى الخير العظيم مع العافية التامة، وهذا جمع غير واقع في هذه الحياة الدنيا، وإنما حال العبد بين أمرين قالهما الله تعالى في كتابه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، فهو بين يُسرٍ وعُسر، ليحصل له مقام الشاكر الصابر، والمرء لا يتمنى البلاء أبداً بل يدعوا بالعافية، مع أن البلاء قدر لا فرار منه ، ولكن إن وقع به البلاء صبر ورجى الأجر العظيم وبلوغ الدرجات التي رتبت على حاله.

والقصد أن الله تعالى إن أراد من عبد بلوغ درجة من درجات القرب وتكفير السيئات قدر له البلاء، بل إن هناك من الدرجات لا يبلغه العبد إلا بالصبرعلى الامتحان، وهذا يعرف في سُنَن الحياة، فإن السيد إن أراد رفعة لعبده وضعه في مقام الامتحان حتى يعلم حاله فيرقيه بحسب نجاحه وإتيانه بالأجر على الوجه الذي يحبه سيده، وهو شبيه بالذنب المقدر على العبد، فإن الله يقدر للولي الذنب حتى يحصل له مقام التوبة، وهو من أحب المقامات إلى الله تعالى، بل قال ﷺ: ((ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بأقوام يذنبون فيستغفرون فيغفر الله تعالى لهم))، وقد علم أهل العلم أن هذا كشأن المرض يعود المرء منه أحسن مما كان عليه، فالحمد لله الذي جعل البلاء سبباً لمقاصد الصالحين والأولياء.

وإن من حِكَم الابتلاء والامتحان حصول النصر، فإن الله تعالى لم يكتب معاني الأمور مع الدعة والترف، بل كلما كان الأمر عظيماً كان ثمنه عظيماً، ولم يحصل نصر لقوم على قوم إلا لصبرهم على البلاء، وتركهم الدعة والخمول والكسل، وهذا معنى مستور في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فإن من معاني هذه الآية أن الله يبتلي عباده ليخزي الفاسقين المجرمين، وقد علم أهل العلم أن الدعوة إلى الله تعالى، وانتشار الحق وغلبته كان أعظم السبل لتحقيقها هو البلاء، حيث يرفع الله درجات العلماء والمجاهدين، فيحبهم الناس ويقبلون على دينهم ودعوتهم، فالله تعالى فطر القلوب على محبة الثابتين على مبادئهم، والصابرين على دعوتهم، فإن وقع البلاء والإمتحان على قوم بسبب دينهم، فصبروا وثبتوا حصل نصرهم وثباتهم النصر على خصومهم، وقد بين القرآن الكريم في سورة الشعراء أحوال خصوم الدعوة، كيف يبدؤون بالإستهزاء والإعراض، ثم بتحدي الدعوة ومعاداتها، ثم يحصل لها النصر من الله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ فانظر كيف ارتقت أحوال فرعون مع موسى عليه السلام، حيث بدأ بقوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إنكاراً وإعراضاً عنه، ثم قال ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهذا استهزاءٌ به وينفر عنه بالدعاية الكاذبة، فلما لم تنفع معه هذه الوسائل لجأ إلى التهديد والوعيد فقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، وحين تحصل المواجهة بعد هذا يقع النصر الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، ومن تفكّر في صبر الإمام أحمد في محنة خلق القرآن، وكيف وقف وحيداً فيها حيث مات رفيقه في الطريق محمد بن نوح الجنديسابوري؛ فلم يبقَ إلا هو فلم يهن ولم يتراجع لكنه ثبت وصبر، ثم كانت العاقبة له من دون الآخرين، فصار إماماً للناس كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، حتى جعله بعض أهل العلم قرين أبي بكر الصديق رضي الله عنه في محنة الردّة عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ.

فنصر الدين لا يكون إلا بابتلاء أهله، حيث يعرفهم الناس بالصبر والثقة بالله، فجعل الله في قلوب الناس الحب لهم، ويعلمون أنهم بصبرهم هذا هم أهل الحق، ولولا ما يجدون في قلوبهم من معاني الثقة بالله والتوكل عليه ، واليقين على دعوتهم وما هم عليه من الدين والحق لما ثبتوا هذا الثبات، فيقبل الناس على دين هؤلاء الصابرين فتحصل لهم الغلبة والنصر.

وهذا المعنى كذلك يصاحبه رؤية الناس تأييد الله تعالى لأهل الحق، والعواقب تدل على صلاح الطريق أو فساده، فالطريق الصحيح يوصل إلى العاقبة الصحيحة المطلوبة، والطريق الفاسد يوصل إلى معناه، ولذلك كان من أكبر الأدلة على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام حصول العاقبة بالنصر والتأييد وهزيمة أعدائهم، وهذا كثير في القرآن كما قال تعالى عن آلهة المشركين: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ وقال عنهم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، وأمّا من كان مع الله تعالى فإن الله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾.

فهذان أمران أولاهما: أن الإبتلاء طريق النصر وانتشار الحق وغلبته وذلك بمحبة الناس للصابرين على دينهم، وبنصر الله تعالى لهم بالغيب، ومن رام النصر والتمكين بغير طريق البلاء فهو جاهل في سُنَن الحياة وطريق الأنبياء والصالحين، فقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى عما هو خير: أَيُمَكَّنُ الرجل أم يُبتلى؟ فقال: لا يُمَكَّنُ حتى يُبتلى.

ولقد رأيت في حياتي هذا المعنى واضحاً جلياً، فإن الدعوة إلى الله تعالى، وانتشار الحق بوجوب تحكيم شرع الله تعالى وتكفير الطواغيت ووجوب قتالهم لم ينتشر بين الناس كما انتشر بسبب صبر الدعاة إلى الله على الفتنة في هذا الباب، وكلما ثبت هؤلاء في المحنة كلما انتشرت دعوتهم، فحيث أراد الطغاة حبسهم لمنع اتصالهم بالناس وإيصال البلاغ لهم كان انتشار الدعوة والتحاق الناس بها، والدعوات الأخرى مع تسهيل الحكومات لهم، ودعمهم بالمال والإعلام، وفتح قنوات الإتصال لهم مع

الآخرين إلا أن الحق أغلب وأبلج، فما أن يُبتلى أحد الدعاة حتى يلتحق به العشرات من أهله وإخوانه وأصحابه، وهذا سرُّ هذا الدين فهو كالهواء لا يقدر أحد حبسه، وإن حبس في مكان كان في آخر أكثر، ولقد استشهد الدعاة في هذا الطريق، ولا يعلم طريق قدم أهله فيه الشهداء كهذا السبيل، ولم يسجن مثلهم إلا أن الحق ينجو ويضطرد، فإن حصدوا قليلاً كانت الشهادة ثم الله يزرع، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فهذه حكمة البلاء واقترانه مع هذا الدين، وكأنهما شيءٌ واحد، وكذلك مع أهله، فهذا رسولنا ﷺ لم يخلُ زمانٌ له بلا ابتلاء وكانت كُلُّ محطةٍ لرفع البلاء تُحقق النصر على خصومه، حتى ماتَ وهو قرير العين وهو يرسل بُعث أسامة بن زيد إلى خارج جزيرة العرب.

فتفكّر في هذا الأمر ثم انظر إلى أولئك الواهمين الذين يظنون أنه يمكن إعادة العزة لهذا الدين، وإزالة غربته الثانية بالدعة والخمول والكسل والهروب من سبل البلاء المقدرة مع هذا الدين، حيث مالت بهم السبل في الدخول في سبيل المجرمين، وسكتوا عن الحق، وأعطوا الدنية في دينهم، فما جنوا بعد السنين الطويلة إلا الخسارة والهوان، ولم يزيدوا سوى الوقوف مكانهم دون تقدم.

يقابل ذلك هذا الجهاد المبارك الذي سعى سعيه متقلباً في المشرق والمغرب حتى آبَ إلى الأرض المباركة، بلاد الشام، لتتحقق الوعود الإلهية بإزالة علو اليهود وفسادهم بإذن الله تعالى.

وإن من حكم البلاء في سبيل الله تعالى أن يعرف أهل الإسلام حقيقة خصومهم، فإن القرآن وأحكامه قد لا يفهمها البعض على وجهها، حيث يأمرهم بالقتل والتشريد كما قال تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ فإن هذه أوامر شرعية ربانية، وهي محتاجة في نفس العابد إلى معاني قلبية غير أنها من عند الله تعالى، أي أن يبصر العابد موجبها في الواقع، فإن لم يقع البلاء عليه من أعدائه فإنه لا يحس بهذا المعنى، فكيف يقتل العابد لربه رجلاً لا يحس خبثه وشره وفساده وكذبه وخيانته؟ فهذا شاق على النفوس، فإن رأى المؤمن حقيقة خصمه وما يصنعه معه علم بما عاش وأحس وأبصر حكمة هذه الأوامر الربانية ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَا

تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فقد جعل الله سيرة الكافرين موجباً لقتالهم، ولذلك كان المداهنون لأعداء الله أكثر الناس اعتذاراً عنهم، يبحثون لهم عن المعاذير، ولو جربوا تجربة الدعاة إلى الحق والمجاهدين لرأوا حقيقة إجرام هؤلاء وخبثهم وخستهم، ولرأوا أن القتال هو ما يستحقون من جهة العقل كما هو ثابت من جهة الشرع، وهذا المعنى هو ما يحقق حُكم الله تعالى فيهم كما حقق سعد بن معاذ ﵁ حُكم الله تعالى في بني قريظة، فإن هؤلاء اليهود كانوا أولياءه في الجاهلية، ويحبهم ويفديهم بنفسه، ولم يعرف قيحهم وإجرامهم حتى عايش منهم هذا الحقيقة، وتجلى هذا في غدرهم في غزوة الأحزاب، حيث خانوا المواثيق والعهود، فلما حكم عليهم بحكمه والذي هو حكم الله تعالى من فوق سبع سموات كما قال الحبيب المصطفى كان سبب هذا هو البلاء والمحنة التي أوقعوها بالرسول ﷺ وبه وبالمسلمين، فكانت المحنة سبباً لكشف الخصوم على حقيقتهم، ومن جرّب سجون الطواغيت علم كفرهم على حقيقته لم يحتج إلى برهان غير ما رأى وسمع، واسأل إن شئت شاباً حقق معه أعوان الطاغوت حيث يسبون الله والرسول والقرآن، ويستهزؤون بدين الله تعالى، ولا ينقمون من المؤمن إلا أنه طاهر يعبد ربه، ولقد كنت أعرف أن كفرهم بدليل الكتاب والسُنّة ولا أشك في ذلك، لكن أن أسمع من إخواني أن أعوان الطواغيت وجنودهم يصيحون في وجوههم: "أعلُ هبل" فهذا لم أكن أتخيله ولا أتصور وقوعه، فالواقع هو الذي يشهد للحق، وهذا الواقع يكون أجلى ما يكون في المحنة والإبتلاء، ولو جرب الناس تجربة المجاهدين والدعاة إلى التوحيد والسُنّة لما احتاجوا إلى أدلة كفر المبدلين لشرع الله تعالى، حيث يسمعون منهم الإستهزاء بالله وبدينه وبرسوله، وحيث يهان القرآن ويعظم القانون أكثر منه، وحيث يصرخ المحققون سباً لله تعالى في بلاد يزعم حكامها أنهم أهل التوحيد أو أهل النسبة لرسول الله ﷺ.

فبالمحنة يبصر الدعاة والمجاهدون حقيقةَ الشرع وملائمته للواقع، وأنه هو السبيل الأقوم لعلاج الفساد الواقع في الأرض، وأن القوم هم سفلة الخلق والرجس الخسيس، ومن العجب أن هؤلاء الأنجاس الأرجاس هم من يتبسمون ويبشون في وجوه مشايخ السلطة والنفاق، وهم من يجلسون معهم يطلبون ودهم وقربهم، مع أنهم في خلواتهم مع الدعاة وهم في المحنة يكشفون ستر وجوههم فيبدون على حقائقهم من غير تزييف.

فجزى الله المِحن خيرَ الجزاء كيف تَكشف حقائق المجرمين، كما أنها تَكشف حقائق الصابرين الصادقين، ولذلك لا يحتاج هؤلاء المجاهدون والدعاة إلى الحق معاذير الجاهلين في صرفهم عن جهاد الطواغيت، لأنهم هم أبصر الناس بهم وأعرف الناس بحقيقتهم، أما الذين يتقمعون فتات موائد الطواغيت فهؤلاء جهلة جهلاً مركباً؛ في الشرع والواقع.

وقد يعجب الجاهل من جرأة المجاهدين على دماء أعوان الطواغيت، والسبب أنه لم ير ولم يسمع ما رآه هؤلاء، ولم يسمع ما سمعوه، فإنهم رأوا الكفر البواح على حقيقته وسمعوا الكفر الصريح من هؤلاء، بل رأوا منهم خسة ليست في الكفار الأصليين، وعداءً لدين الله تعالى لم يعرفوه في كفار قريش، وانتصاباً لإيذاء المسلمين أشد من إيذاء اليهود لأهل فلسطين، فمن جرب هذه التجربة ورأى وسمع فإنه يحزن وهو يسمع من أهل المداهنة والكذب الدفاع عنهم، والبكاء عليهم إن قتلوا، أو الصلاة عليهم، فكيف يصلى على من يضع لحية المسلم في بيت الخلاء وهو يضحك ويستهزئ، نعوذ بالله من طمس القلوب.

ولذلك كان الإخوة يسمعون مني كثيراً التمني والرجاء أن يُسجَنَ أهلُ الإسلام ولو لمدة يسيرة، حتى يعرفوا حقائق المجرمين، فإن جلسةً واحدة أو تجربةً واحدة كفيلةٌ بإظهار الحق أكثر من جلساتٍ مناظرة تدار بين العالمين بدينهم ممن يُكفّر المشرعين الطواغيت وأعوانهم، وبين الجاهلين من أهل البدعة ممن يعتذر لهم ويدافع عنهم.

وإن من حِكَم الابتلاء قيام الشهادة لله على الخلق، فإن الله تعالى يحب الإعذار، ولذلك بعث الله الأنبياء لتقوم الحجة على الخلق كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وكقوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾، فتسليط الله الكفار على المؤمنين والمجرمين على الصالحين لتقوم حجّة الله تعالى على هؤلاء، أنهم سمعوا الحق وعلموه، ورأوا رجاله وطهرهم وصبرهم وثباتهم، ومع ذلك أنكروا وأعرضوا بل وصدّوا عنه وقاتلوه كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، والحجة قد تكون بمجرد السماع حتى يحصل العقاب يوم القيامة، ولكن الحجة التي يحصل بها إهلاك أعداء الله تعالى إنما تكون بإيذائهم أهل الحق والإيمان،

كما ذكر الله تعالى في سورة [يس]، فإنهم لما قتلوا صاحبهم وقال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ فلما حصل منهم هذا قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، ولذلك يُجري الله تعالى من أقدار الابتلاء بين المؤمنين وأعدائهم حتى تكون الحجّة بالغة، فيقع العذاب، والعذاب كان في الأُمم السابقة على وجه الاصطلام لهم، وأمّا بعد موسى عليه السلام فإنه يكون بتسليط الله المؤمنين على الكافرين كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

فضرورة الابتلاء ولزومه مع الحق لتحصيل الحجة على الخلق في الدنيا ويوم القيامة فهؤلاء لا عذر لهم عند الله وقد سمعوا الحق من أهله، ووصلهم البلاغ فلم يكتفوا برده، بل عادوه وقاتلوه، والله يقول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ وبزيادة الحجة يكون العذاب في الدنيا والآخرة.

والحجّة قد تقام على الإمام فيهم بالبلاغ، لكن سريان الحجة واقعاً في الجنود والأتباع لا تكون إلا بالبلاء، فقد رأى المبتلون في سبيل الله تعالى كيف أن جنود الطواغيت يشبهون أئمتهم وقادتهم، فالطاغوت يضرب بسيفهم، ويستقوي بأذرعتهم وقوتهم، ولولاهم ما كان له شأن، ولا صار له إمامة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ ولم يحصل هذا حتى سار جنوده وراءه في عداء موسى عليه السلام، وهذا المعنى اليوم لا يتحقق إلا بما يعانيه الإخوة في سجون الطواغيت حيث يرون أن الجنود أسوأ من الطواغيت أنفسهم، بل إن بعضهم يحب أن يراه سيده وهو يتلذذ في إيذاء الدعاة إلى الله تعالى، وهذا لم يكن ليقع إلا بما يعيشه أهل الإسلام من البلاء والمحنة بالسجون وغيرها.

ومن فَقه هذا المعنى علم عظم درجة أهل البلاء، حيث يتخذهم الله شهداء على الخلق يوم القيامة، فيحضر الخصم والشهود، فيتحقق قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

وبهذا تنتهي حجتهم أنهم فقط يريدون العيش والكسب بهذا الطريق، فإن من كان هذا حاله فإنه يسعى للانعتاق من هذا العمل حيث يفتح له السبيل، أو يبين له الحق، لكن هؤلاء يجرمون أكثر من إجرام أسيادهم، ويعذبون أهل الإيمان أكثر مما يطلب منهم، فأنّى لحجتهم الثبات والقبول؟

ولولا البلاء الذي يقدره الله تعالى على عبيده وأوليائه لم تكن الحجة قدراً وشرعاً بهذا البلاغ والجلاء، والله ﷻ إنما يوقع الحجة بهذا الطريق كما أوقع البلاء على الصديقة مريم عليها السلام حيث قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًا﴾ مع أن الملائكة سموا ما وقع معها بشرى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وبهذا البلاء في اتهامها كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ حصلت المحنة للخلق أجمعين في عيسى عليه السلام، وجعل ولادته آية كفر بها أقوام وآمن بها الصالحون، وهذا شأن البلاء مع الأولياء، فإن الناس يفترقون فيه بين مكردس في النار لفعله ولقوله واعتقاده، وبين مرتق في درجات الجنان، وهذا سر البلاء وعمومه في الخلق، فإنه لا يقع فقط على المتألم به والواقع فيه، بل تكون الحادثة ابتلاءً للخلق العالمين بها أجمعين، وبهذا يقع السؤال يوم القيامة للناس العالمين بها كما في الحديث الشريف: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة)).

وقد رأى الناس اليوم فرق الأُمَّة مع البلاء الواقع على أهل الدين والجهاد، فشامتٌ أو جبان أو ضالٌ مائلٌ إلى الباطل، وإمّا محبٌ ساعٍ للخير، داعٍ لربِّ السموات والأرض لهم، وكل من هؤلاء ناله ما رجاه، ومن حكم القرآن في سورة [آل عمران] في حديثها عن موقعة أُحُد أنها فصّلت حال الذين ارتضوا دعوى الحكمة الكاذبة في تقريعهم للنافرين للجهاد كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وكقوله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ وقوله تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، فكشف بالبلاء أمر المنافقين، لا بقلة صبرهم فقط كما يظن البعض في شأن

البلاء، لكن البلاء محنة للناظرين إلى أهله كذلك، وبه تتم حجة الله تعالى على خلق آخرين وجلهم خير الصابرين والمبتلين.

وإن من حِكَم البلاء أنه يحقق معنى التأييد الالهي لأهل الحق العاملين به، فإن أهل الكفر والضلال يسعون جهدهم لإماتة الحق وإزالته، فيقتلون ويسجنون، فيصيبون مرادهم في قوم كما أصاب فرعون من السحرة الذين آمنوا، فكانوا في أول نهارهم سحرة كفرة ثم ختم يومهم أنهم شهداء بررة، وكما حصل لأهل الأخدود، ولكن هذا لم يمنع من تحقق النصر رغم أنف فرعون، حيث ربّى الله تعالى موسى عليه السلام في قصر فرعون، فكان في هذا الطفل هلاك فرعون كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، ولقد ذكر في بعض الآثار أن فرعون كان يشتهي قتل هذا الطفل ويعلم أن فيه هلاكه، لكنه حجب بحجب الله تعالى له عنه، وهذا يقع اليوم كذلك، فإن الطواغيت ليتمنون قتل كل الموحدين من الدعاة والمجاهدين، ومن رأى ما فعلوا مع المسجونين لعلم هذا يقيناً، لكن الله تعالى يحجبهم عنه بفضله، وهو لا يدرون لماذا، وما لها من تفسير إلا حكمة الله في تأييد هؤلاء الفتية من الدعاة والمجاهدين، وكم حصل في التاريخ ماضياً وحاضراً أن ندم الطواغيت وعضوا أصابعهم غيظاً على من فلت من بين أيديهم، وجعلوا يقلبون أكفهم حسرة كيف منعوا من قتلهم وإبادتهم، ثم كان في هؤلاء الذين نصرهم الله هلاك هؤلاء الطواغيت أو إيلامهم أو ذهاب ملكهم، وقراءة سيرة المهديين كلها تدل على هذا المعنى حيث يعجب الناظر كيف آب هؤلاء المستضعفون إلى النصر والتمكين، وكيف استطاعوا الافلات من بين أيدي المجرمين، وهذا تمام البيان أن هؤلاء أهل الحق دون غيرهم، وأن الله ناصرهم، وحجة الله على الخلق كما تكون بالبيان في كتابه وسُنّة رسوله ﷺ كذلك تكون بالوقائع والأحداث والرجال كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وكقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾، وفهم هذا المعنى يؤدي إلى فهم سُنّة التدافع في الخلق، ولا يدرك هذا المعنى إلا المعانون لذلك من أهل البلاء، فإنهم يرون كيف يتفلت عليهم المجرمون يريدون اصطلامهم، فيحجبون عنهم ولا يدرون سر ذلك، وماله من تفسير إلا نصرة الله لهؤلاء المستضعفين، وحجب الله لهم عن مراد أعدائهم فيهم؛ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وهذا المعنى لولا غلبة الكافرين على المؤمنين حيناً من الدهر ابتلاءً من الله لأوليائه لما حصل ووقع، وهذا من حكم الله تعالى الجليلة في البلاء حيث يظهر ارادته الغالبة على ارادات غيره من أعدائه وسواهم كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، فأَن يبدأ الحق قوياً في أمره لا يظهر هذا المعنى من نصر الله له، ولكن أن يكون على الوجه الذي سارت فيه سُنَن المرسلين يظهر هذا المعنى فيُنسب فضل النصر لربِّ العباد كما فصّلَ إمام المرسلين وهو داخلٌ مكّة قائلاً: ((الحمد لله الذي أَنجَزَ وعده ونَصَرَ عبده وهَزَمَ الأحزاب وحده)).

وإن من معاني النصر، وهو من حِكَم الابتلاء أن يتولى الله تعالى عبده المبتلى بالرزق من حيث لا يحتسب،فإن توكل على الله تعالى في بلائه رزقه الله تعالى من خزائن عطاياه ما لا يعرف ولم يحلم به، فتجده غنياً بالعطاء الالهي، وكذلك يتولى الله تعالى له أهله بالتربيبة والعناية، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، فهذا الميت يخشى على ذريته من بعده، فدخول المبتلى في هذا المعنى ظاهر بين، إذ يتحقق فيه المعنى والعبرة، ومن تأمل قصة يوسف عليه السلام رأى هذا المعنى وتبينه، إذ كانت رعاية الله تعالى ليوسف عليه السلام أعظم من رعاية أبيه له مع نبوة الأب يعقوب عليه السلام، وهذا معنى موجود في أبناء أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم نفروا للجهاد وقد تولى الله رعاية أبناهم فكانوا أئمة الهدى من بعدهم، ومن استقرأ الواقع اليوم يجد ذلك كذلك، فإن الله تعالى يكفي أهل المبتلين بكفايته وهو القائل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، فلهم الفضل على غيرهم بالخلق والدين والكفاية التي يحبها الله تعالى لهم، وهؤلاء الأبناء أعظم الناس حباً لأبائهم وهم في الأسر، ويتعلمون من سجنهم وصبرهم الكثير من العلم الذي يفقده غيرهم من الأبناء والأهل، ذلك لأن الله إذا أحبَّ عبداً نادى عبده جبريل أني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم يحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض، وهؤلاء هم أولى الناس دخولاً لحديث الولي الذي فيه: ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب))، وفيه عنه ((وكنت يده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه))، ومن جرب تجربة المبتلين علم هذا يقيناً، ورآه بنفسه، وتلك نعمة الله تعالى يضعها حيث يشاء.

وأمّا الباحثون عن السلامة مع المداهنة، فإن السلامة هي أبعد ما تكون فيهم، فالقليل منهم من يأنس بأهله وأولاده، وهو في سعيه لجلب الخير لهم تجدهم أبعد الناس عن مراده، حيث يبتلى بمعاصيهم وجلفهم له، وهو مع بذله المال لهم لا يشكرونه، ومع تقربه لهم لا يحفلون به، وكم يرجو لهم الطاعة فلا يأتونها، وليسوا من أهلها، وهو يعيب عليهم ذلك وما علم أنه هو علة هذا الأمر لا هم، فإن أهل الرجل يبصرون منه مالا يبصر الناس، وينفذون إلى نفسه، فإن رأوا منه جبناً وخيانة ونفاقاً وكذباً، لم يسمعوا له ولم يقع لهم في قلوبهم موقع الحب والتقدير، وأما أهل البلاء فهم أسعد الناس بأبنائهم إن صبروا وتفكروا في أقدار الله لهم، وجعلوا حالهم خير واعظ لأنفسهم وأهليهم، فيكونون بالمثال والشاهد خيراً من الكلام الكثير،وهذا الدين دين صدق، ودين قلوب، لا كلمات فقط تسمع فلا يعلم صدقها بالعمل، والله قال عن رسوله ﷺ ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾.

وهذا من خير حكم البلاء في نفس المبتلى، وهو خير ما يورث المرء وأهله مع ما يحصل من الصيت الحسن بين الناس لهم، فإن المرء لا يورث المال لذريته لأبنائه وأهله، ولكن يورث لهم مثال الصدق والصبر واليقين، كما يورث لهم حب الناس والصيت الحسن برحمة الله وفضله، وهذه مكارم لا تشترى بالمال بل بالصبر واليقين والصدق مع الله في السر والعلن.

وإن من حِكَم البلاء وفوائده ما يحصل في القلب من معاني الحق مما يفتح الله على عبده من العلوم فهماً من كتاب الله تعالى ومن سُنّة رسول الله ﷺ ومن التفكُّر في أقدار الله تعالى، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فإن الله يفتح على عبده بالصبر على البلاء من الهدى والدين ما لم يحصله في الدرس والقراءة، وهذا من معاني الإيمان التي تحدث بها أهل البلاء فسعدوا بها ورضوها مقابلة لما يحسونه من آلام، ويؤخذ هذا من قوله تعالى ليوسف عليه السلام عند قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ فكان البلاء هو طريق هذا العلم، ولم يظهر على وجهه البين الواضح إلا في سجنه، حيث عُلِّمَ بهذا الفن واشتهر فيه بين أصحابه فيه، وإن الفوائد التي ترد على قلب المبتلى لو علم بها أهل النعيم لحسودهم عليها، ولذلك كان ابن تيمية رحمه الله يقول عن سجنه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾،

وشرط حصول هذا المعنى والفائده أن لا يشتغل المرء بنفسه شاكياً جازعاً متألماً كما قال الله عن مثل هؤلاء: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فهؤلاء حالهم كالواقع بين الجواهر والدرر وهو مشغول بوضع أصبعه أو بدمع عينه حتى يفوته الوقت ويخرج من عالم الخير والعطاء.

فالقرآن الكريم كتاب الصبر، وبيئته الصبر والبلاء، ولا يحصل فقهه على الوجه الذي يريده الله تعالى إلا بالعيش في هذه البيئة، فتقع المعاني والعلوم على أهلها المتأهلين لها، ولذلك كان من سيرة أهل العلم في تاريخ الأُمَّة المسلمة البلاء، حتى كان قدر لازم لا ينفك عن واحد منهم، كالأئمة الأربعة – رحمهم الله تعالى – وغيرهم، ومن خلا من البلاء بالسجن كان بلاؤه بالصبر على الفقر في طلب العلم، وهي سيرة مضطردة كذلك، فالبلاء قدر الفهم عن الله تعالى، والقرآن عدّ الترف عدواً للحق كما هو بَيّن في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

فبالمجاهدة في الله تعالى تحصل الهداية في للحق، ولقد احتج بهذه الآية الإمام سفيان بن عيينة – رحمه الله – في تقدمة فقه أهل الثغور على غيرهم لهذا المعنى الجليل، والمعاني القرآنية ليست مجرد ألفاظ وحروف وكلمات لكنها نور وهداية وتوفيق، فكم من قائل بالحق هو عدو له، وأبعد الناس عنه، لأن شأنه مع الحق شأن التاجر الذي يبذل الكلمات ليكسب بها، فلا يحس بمعناها ولا هدايتها فإن ابتلي بسبب الحق أحس للحق معنى، وصار له الفوز به، ولم يعد الحق مجرد كلمات يلوكها، بل معاني يبذل لها من نفسه وبدنه وماله ووقته، فحصل له بها الغنى والفرح والقرب، وتفجرت له عن معاني في القلب لم يكن يحلم بها في حال الوسع والراحة، ولهذا يحصل الفرق بين من يبذل لدين الله تعالى فيدخل عالم الشهداء، وبين من يتاجر لدين الله تعالى ويأكل منه ويقتات به، فدينه مبذول للرخيص، والأول روحه مبذولة لدينه، فشتان بين هذا وهذا، ولذلك لا تعجب غيرة الصحابة رضي الله عنهم وعلماء الحق على دينهم، لا يرضون أن يهان أو يذل أو ينقص، بل روحه عنده أرخص من زر قميصه حين يبذلها لدين الله تعالى وبين آخر لا يَحمَرُّ له وجه وهو يرى دين الله ينقض ويُهان، فإن نوزع في درهمه وديناره انقلب أسداً يقاتل ويهدد، فهذا شأن الموظف الذي شأنه مع الدين شأن التاجر بالبضاعة، وهذا يتاجر بكلمات الله والانتساب للشرع، وما الدين عنده إلا مورد

رزقه كموارد الرزق الأخرى عند الناس، فهؤلاء ليس عندهم للكلمات الالهية أنوار ما عند المبتلين في سبيله، ولهذا تحصل لهم الهداية القلبية بكلمات الله تعالى فوق ما يحصل لهم من معانٍ أخرى لا تخطر على قلب الغافلين الجاهلين، فهذان معنيان للهداية بسبب الإبتلاء، معنى هداية الكلمات التي تورث اليقين والعمل والاخبات ومعنى زيادة العلم بما تورثه هذه الكلمات من علوم يُفهمها الله أهلها والمستحقين لها، فهذه من حكم البلاء العظيمة، يوقعها الله على أوليائه ومحبيه لتحصل لهم العلوم التي تجيب النوازل وتعالج المعضلات، فإن فهمت فلا تعجب أن يستدل أهل العلم من أهل الفقه والأصول بعدم جواز خلو الزمان من مجتهد لقوله ﷺ: ((لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله)) وقد جاء وصف هذه الطائفة كما بَيّنَت أحاديث أخرى بالقتال لحديث سلمة بن نفيل الكندي وغيره، فأهل العلم ممن يحصل بهم جلاء المعضلات وفكُّ المشكلات هم أهلُ البلاء الذين لهم مقام الصبر والصدق فيه، وأمّا المتخمون ترفاً فهم أبعد الناس عن الدين وفهمه، إذ خوفهم من ضياع دنياهم يمنعهم من قول الحق والصدع به إن علموه، كما أن على القلوب غشاوة الفهم عن الله في مضايق الطرق وحلول الشبهات، والله ﷻ إنما يبقي دينه بمثل هؤلاء الجبال من الأئمة الهداة، يبتليهم ويبتلي بهم، ويقيم بهم الحق في الأرض ما دام لله فيها حاجة من عبادة العابدين وذكر الذاكرين، ولو علم أهل الإسلام ما لهؤلاء من الفضل عليهم بالعلم والبيان والبلاء والصبر لشكروا لهم فعلهم ولحمدوا لهم مواقفهم، ولاستغفروا لهم في كل آن.

فارتباط وجود الأرض بوجود الهداة، ووجود الهداة مرتبط بأهل الصبر والبلاء، وتنزل المعاني والمعارف القرآنية على هؤلاء لأنهم أهل هذا الدين والأمناء عليه، لما يبذلون من أرواحهم وجهدهم من أجله حفاظاً ودواماً وجلاءً.

وإن من حِكَم البلاء تذوق معنى النعم الإلهية على العبد، فإن النبي ﷺ قال: ((للصائم فرحتان؛ فرحةٌ عند فطوره وفرحةٌ عند لقاء ربه)) فالفرح بنعمة الله تعالى نعمة إلهية يمن الله بها على عبيده، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وهكذا للمبتلى في سبيل الله تعالى فرحتان؛ فرحةٌ عند انقضائها برحمة الله تعالى في إجابة الدعاء وفرحةٌ عند لقاء ربه، فيحصل للعبد من تذوق النعيم أن نصره الله وفرج عنه فالله به عليم، فهذه معاني القلب لا يبصرها إلا أهلها

ممن يبذلون الغالي والنفيس من أجلها، وإن نوزعت بالذهب والتعب غلبت وقدمت بلا توقف منهم رغبة بها وحرصاً عليها.

والنعيم الحاصل بعد البلاء له ذوق خاص لا يدركه من تتابع عليه ولم يفقده، وإن المرء ليحس بهذا المعنى حتى إنه لو خير أن يعود للبلاء ليرى تلك المعاني لما تردد، وهذا من حكمة الله تعالى في الشكر وتحققه في قلب عابديه، فإن تقلبهم بين الصبر والشكر هو ما يحقق العبودية الصادقة بكل معانيها فما أجهل من يترك الحق مخافة حصول البلاء ورهبة من أن يفقد ترفه المرتكس به، وإن يأسهم وعدم تصديقهم بوعود الله بالنصر وإجابة الدعاء هو ما يمنعهم من خوض الغمرات في أمانة الحق والدعوة إليه والجهاد في سبيله، بل إن أحدهم لا يتصور أن يعيش بغير أفراد هذا الترف، مع أن هذا وهم شيطاني، فكم من الصالحين كانوا في خوف من البلاء، يرتعبون ويرتعشون إذا ذكر لهم، حتى إذا وقعوا فيه وصبروا وعالجوه بالصبر واليقين والدعاء فتح لهم من المعني والقوة ما شكروا الله عليه أن أذاقهم هذه المعاني وأوقع بهم هذه الرحمات، ولذلك صدق من قال:

لك الحمد إن بعض الرزايا عطاء وإن المصائب بعض الكرم

ففرحة انجلاء الغم وذهاب الألم وارتباطها بالفهم من الله تعالى بالشكر، والتفكّر أن الله أجاب الدعاء وحقق المراد هو من أعظم النصر الذي يسعى إليه أهل الفهم عن الله تعالى وعن كتابه، خاصة بما يخرجون به من القوة والعلم والتجربة، وهو غنائم تلك التجربة الإيمانية، والتي لم تكن لتقع إلا بالبلاء والصبر فيه.

إن المُبتلى ليلاحظ السوانح، ويرقب الرؤى، ويتفكر في الحوادث والوقائع، فللكلمات ذوق، وللسوانح إشارات، وللرؤى ترقب، وللحوادث معاني، فالعقل نشط يقظ، والقلب يبصر في الصحو والمنام، والواردات تطوف به في كل آن، فهذه من آية قرآنية، وأخرى من حديث نبوي، وتالية من حكمة سالفة، ولخفقة الطير معنى، وللحوادث سمات يتوسم بها، كل هذا كان في غفلة عنه قبل هذه الرحلة مع فتنة الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكنه فيها مبصر يقظ.

فيا لله كم هم الجهلة الجبناء في غفلة عن هذا كله، ويا لله كم له من جنود في الخفاء يبسط عليهم رحمته، حين تغلق الدنيا عليهم بابها فينفتح عليهم من الأبواب التي هي سر بينه جل في علاه وبينهم في صبرهم وفهمهم وجهادهم.

هذه أخي أبا عبد الله ما جاء به القلم إجابةً لطلبك، قد قصرت في وصف هذه المكارم الإلهية أيما تقصير، فإن المعاني الجليلة تحتاج إلى عين صقر ترقبها لدقتها، ثم تحتاج إلى قلم له دربة على الشرح والتفصيل، فإن تكلم مثلي فإنما يتكلم على ما يراه الأعمش، حيث لا يرى إلا التلول والجبال من هذه المعاني، وأمّا خيوط الذهب الخفية في هذه الجبال فلها رجالها ممن يعيشون بها، ويتلذذون بمعانيها، وهي لجوهرها وعلوها أهل صنن بها، تفلت منهم العبارة القصيرة هي أعلى من كل ما كتبت، وهي أدق من كل ما أتيت في هذه الورقات لك، وإني على يقين أن هذا العلم أعظم مراتب الفهم عن الله تعالى، بل هو من لباب كتاب ربنا في الأمرين؛ الشرعي والقدري، لكني أرجو أخي الحبيب أن تدلك هذه الخيوط الظاهرة مما كتبت على الكنوز الخفية في حالك الذي أنت فيه من البلاء والسجن حين أُسرت لإرادة النفير إلى أرض الجهاد، والكلمات إنما هي إشارات فوق المعاني، لا يحصل الذوق بها في القلب إلا بالخوض فيها والعيش في ظلالها وقطف ثمارها، وأنت الآن في بستانها، فعليكَ بكتاب الله وتلاوته، وعليكَ بالعلم والنظر فيه، وعليكَ بالذكر في كُلِّ آن، فعسى أن تحدث إخوانك وأبناءك يوماً ما ذقت ورأيت وفهمت فتكون لك الإمامة التي هي دعاء الصالحين: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ آمين آمين.

وفي الختام إني لأرجو أن أردف لك بغير هذه الرسالة رسالة أخرى فيها ما تستعين به تحتاج إليه لتحقق حكم الإبتلاء وهي مقويات الصبر، فالطريق طويل وشاق، والإنسان قد خلقه الله في كبد، فهو في بلاء على كل حال، إن كان بين أهله أو بعيداً عنهم، أو كان في أَسر أو بدونه، فهذه طريق المؤمن، لا راحة له إلا بلقاء ربه جل في علاه، ونحن أهل ضعف وغفلة تعترينا لمات الضعف وغلبة الشيطان، لكن الأمر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، وما أكتبه لك فإني بحاجةٍ إليه مثلك، فالحال واحد والله الموفق لسواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين.